الإمام الحسن العسكري "ع" – دراسة في التأثير والتأثر

أ د. رحيم خريبط عطية

مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

المقدّمة:

يتعرض هذا البحث لموضوع يخصّ الإمام الحادي عشر من أهل البيت في ترتيب الأئمة الإثني عشرية هو الإمام الحسن العسكري. ويكون الحديث عنه من محورين كبيرين، يتعلّق المحور الأوّل بأثره في المجتمع ، ويتعلّق المحور الثاني بتأثّره بالمجتمع ، بمعنى أثر الأحداث المحيطة به من سياسية واجتماعية واقتصادية وإدارية وغيرها وكيفية تعامله معها على أساس مدروس وصحيح . ولا ريب في أنّ إمامة المسلمين أو إمامة طائفة منهم ليست بالأمر السهل، بل يتطلب علما وصبراً وردّ فعل مناسب إزاء الأحداث والأمور المستحدثة. وقد استطاع الإمام العسكري أن يمارس نشاطاً وفكرياً مع ما أُحيط به من صعوبات جمّة ومن تضييق من قبل الحكم الذي كان سائداً. وقد استطاع أنْ يفسّر القرآن وقد وصل من هذا التفسير تفسيره لسورة الفاتحة وجانباً من سورة البقرة مع أنّ مؤرخين قالوا إنّه تفسير كبير، لكنّ شكوكا قد أحاطت بهذا التفسير من لدن محققين وأهل العلم من الطائفة الشيعية تحديداً. وقد بذل جهوداً عظيمة في مناقشة أهل البدع من أصحاب النظريات المنحرفة والفرق الضالة.

وقد أفتى بحرمة هذه الفرق وحذّر من الانجرار وراء فرق معينة أخرى كالصوفيّة التي يصعب تمييزها من الفرق الأخرى. وقد تحمّل أعباء الإمامة بعد أبيه الإمام علي الهادي "ع" وقد ورث تركة ثقيلة من أعباء الحكم وأعباء الأفكار المنحرفة والديانات الأخرى التي أرادت استغلال بعض الأمور للتشويش على المسلمين. واضطر أن يتحمل أوزار السياسة الخاطئة وما تقوم به الطبقة الحاكمة من بذخ وتبذير للأموال واستحواذ العبيد والأعاجم على مقدرات الدولة، بينما يعاني الناس من وطأة الجور والظلم حتى اضطروا للهجرة من بلدانهم إلى بلدان مجاورة. واضطر كذلك أنْ يتحمّل انتقال الحكم من خليفة إلى آخر فقد عاصر ثلاثة من الخلفاء مع تغيّر طبيعة كل واحد منهم واختلاف مزاجه عن الآخر. وهو لم يدّخر وسعا في تقديم العون

والمشورة للآخرين وتمكن من قيادة حركة علمية وأنشأ مدرسة فكرية وعلمية من طلابه وأصحابه وأقام شبكة من الوكلاء الموثوق بهم في العالم الاسلامي كله فضلا عن توجيهاته ورسائله التي وجهها لأصحابه وكان يفعل كل ذلك من دون مقابل وقد اتبع الاسلوب العلمي الهادئ في التعامل مع القضايا وكان يوصي أصحابه بالسكينة والورع .

أوّلاً : موقع الإمام في الائمة الإثني عشر "ع":

إنّ من المفيد أنْ نبدأ بتسليط ضوء على العصر الذي عاش فيه الامام العسكري والظروف التي رافقت نشأته وتسنّمه أمور الإمامة . وما من شكّ فإنّ كلّ عصر يطبع الشخصيّات التي تعيش فيه بطابع معيّن مع خصوصيّة كلّ شخصيّة ودرجة نضجها . ولا سيّما إذا ما اخذنا بالحسبان أنّ الخلافة كانت بالوراثة وأنّ الخليفة يواصل بشكل أو بآخر سيرة أبيه أو أخيه ويعرف من خلاله ومن خلال مستشاريه ووزرائه الأشخاص المؤثرين في الدولة وبالتحديد أولئك الأشخاص الذين يعارضون الحكم . وإذا ما صادف انْ تعيش الشخصية مدار البحث في عهد ثلاثة من الخلفاء[١] فحينئذٍ تكون المشاكل والصعوبات التي تواجهها معقّدة تبعاً لتغيّر السياسة حتى لو كان هذا التغيير طفيفاً .

إنّ ترتيب الإمام الحسن العسكري هو الحادي عشر عند الشيعة الإثني عشرية وكان معروفاً ((في وفرة علمه كما استلّ اعتراف العلماء المعاصرين له ومن جاء بعده بفضله وعلمه وقدراته الخارقة ، حتى قصده القاصدون للانتهال من نمير علمه ، ومثله العليا))[٢].

وفضلاً عن علمه ، فانه يتمتع بأخلاق آبائه الفاضلة وما عرفوا به من تقوى وزهد . وقد لاحظ معاصروه فضله وعلمه وأقروا به وكانوا يكنون له الاحترام والتبجيل وحفظ مقامه العلمي الرفيع بينهم . كانت ولادته بالمدينة المنورة يوم الجمعة من ربيع الآخر في سنة ٢٣٢هـ على أشهر الأقوال ، وتربى في كنف أبيه الامام علي الهادي ونشأ في سامراء ومن مدينة يسكنها اسمها ناحية العسكر جاء لقبه " العسكري " وقال الفيروز آبادي : عسكر : اسم سر من رأى [٣] مع أنه لقب بألقاب اخرى هي: الصامت والخالص والزكي والهادي والمهتدي والنقي والسراج [٤] دلالة على احترامه ويكنى بأبي محمد وبأبي الحسن وكان نقش خاتمه

: أن لله شهيد أو : إن الله شهيد أو سبحان من له مقاليد السماوات والأرض[٥]، وفي كل هذا دلالة واضحة لا غموض فيها ، وأن الأئمة من آل البيت إنما هم موحدون وعباد صالحون نهجوا نهج رسول الله ولكنّ الضالين من الناس أو المنتفعين منهم أو الذين يضمرون السوء للدين المحمدي هم الذين زيّفوا الحقائق وأوهموا السذّج من الناس في أنّ الأئمة يسلكون سلوكاً غير سلوكهم القويم وأنّهم يملكون أمر الخلق والكون ، إنّما هم يقتفون سيرة جدّهم المصطفى الكريم الذي نزل فيه قوله تعالى : ((قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلّا ما شاء الله ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّنيَ السوء إنْ أنا إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون)) [٦] فالآية صريحة ولا غموض فيها في أنّ الرسول (ص) لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرّاً إلا ما شاء الله وجاءت كلمتا (النفع والضر) بالتنكير للدلالة على عموم اللفظ وأنّه (ص) لا يعلم الغيب ، وبهذا لا يصح أنْ ينسب للأئمة ما ليس فيهم ؛ لانّهم يأتون بعد النبي (ص) في الأهمية ونقش خاتم العسكري واضح الدلالة على هذا وعلى غيره ، ولا نعدم فرقا من داخل فرق الشيعة من ضلّت في عهد الإمام العسكري ثم رجعت عن غيّها وفرقا أخرى لا تعترف بإمامته [٧]

وأرجع باحثون إلى أن السبب يعود إلى العباسيين الذين حجبوا الناس عنه وقطعوا أي اتصال له بشيعته ؛ وهذا قاد إلى تمكن مجموعة منحرفة قامت بنشر الإشاعات والأفكار المنحرفة بين صفوف الناس والعبث بما يتمتعون به من ايمان ؛ من أجل شل قواهم وتوهين إرادتهم والحط من شأنهم . واستطاع الدجالون والمخربون من الاندساس بينهم وإفساد عقائدهم ؛ مما نجم منه التشكيك في الائمة والرد عليهم فضلا عن شيوع الاضطراب العقائدي بين صفوف بعض الشيعة ، وهو الحسد لبعض وكلاء الإمام الذين عهد إليهم قبض الحقوق الشرعية وصرفها على المحتاجين من فقراء المسلمين وسائر الجهات الاصلاحية وعز ذلك على بعض الشخصيات البارزة الذين لم يظفروا بمثل ما وصل إليه الوكلاء من ثقة ؛ مما أدى ذلك إلى الحسد والتباغض ؛ فأخذوا يبثون الفرقة والتشكيك في عقائد القوم[٨]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المصادر التي نقلت مثل هذه الاخبار عن الامام العسكري وعن الأئمة الذين جاؤوا قبله إنّما تذكر العلاقة بين الامام وبين " شيعته " وكلمة شيعة يقصد بها الذين يذهبون المذهب

الامامي ويشكلون من ١٠ إلى ٢٠ % من عموم المسلمين الذين يذهبون المذاهب الاربعة للأئمة الاربعة المشهورين وهم : الامام بو حنيفة النعمان ، والامام مالك ، والامام الشافعي ، والامام أحمد بن حنبل فضلاً عن الصوفية وفرقها وطرقها المعروفة . وتجدر الاشارة إلى ان أصول الأئمة الثلاثة فارسية باستثناء الامام أحمد بن حنبل العربي . وهذه المصادر كأنّما تصرّ على كلمة " شيعة " مشعرة بأنّ الامام إنّما تنحصر إمامته بهؤلاء " الشيعة " وحقيقة الامر غير ذلك ، إذْ أن أئمة أهل البيت عرب أقحاح و لم يكن أي إمام ابتداء من الامام علي " ع " وإلى الامام العسكري الذي نحن بصدد الحديث عنه إنّما يعاملون المسلمين معاملة واحدة ، في الوقت الذي لا نجد فيه من المسلمين عامة ممن حسن اسلامه ، لا يكنون إلّا المحبة والمودة في نفوسهم لآل البيت الكرام وإلى قرابة الرسول (ص) عملا بالآية الكريمة : ((ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور)) [٩] إذْ جعل الله تبارك وتعالى ثمن الرسالة مودة قربى رسول الله (ص) وهذه مسألة واضحة ليس بها حاجة إلى تفسير أو تأويل ، ولا تصح صلاة المسلم إلّا بالصلاة على محمد وآله الطاهرين ، قال الامام الشافعي في ذلك شعراً :

يا آل بيت رسول الله حبّكمُ فرضٌ من الله في القرآن أنزلهُ

يكفيكمُ من عظيم الفخر أنّكم من لا يصلّي عليكم لا صلاة لهُ

فليس من المعقول أنْ يكون آل الرسول يفرّقون بين مسلم ومسلم آخر ، بل نجدهم يحافظون على حقوق الناس من غير المسلمين وهذا ثابت عن الامام علي (ع) حين يمنح غير المسلمين حقوقا من بيت مال المسلمين وثابت عند غيره من الأئمة من ذريته المباركة ، فلا يصح بعد ذلك أنْ يصوّر الأئمة أنّهم يعملون سرّاً ؛ من أجل الإطاحة بالخلافة العباسية أو بالخلافة الأموية – حتى لو كان هذا الامر من حقهم – إذْ ثبتت الأدعية في الصحيفة السجادية أن دعاء الثغور إنما كان للمسلمين المرابطين على حدود الدولة الاسلامية في زمن الخلافة الاموية . فكل الائمة لا يضمرون إلّا المحبة والخير للمسلمين ولغيرهم حتى إنّهم يقابلون الإساءة بالإحسان ، ولولا خشيتي من تطويل البحث لأثبت كل ذلك بالأدلة الموثقة ، فما الذي

يحمل الباحثين إلى التركيز على تصوير الأئمة بأنهم يعنون بالشيعة فقط وكأنّما لا علاقة لهم بالمسلمين الآخرين . فكيف يصح أنْ تكون خلافة الرسول (ص) لأشخاص لا يعملون إلا إلى طائفة معينة محددة ويهملون الاخرين وينظرون إليهم بوجل وريبة . وهذا طبعاً ينافي ما عليه أهل البيت من أخلاق سامية وسيرة حسنة يتمتعون بها ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقبل الحديث عنهم مباشرة ويسميهم " السلسلة الذهبية " . وما من شكّ في أنّهم أقرب الناس نسباً وعلماً وسيرة إلى جدهم المصطفى الكريم . ومن أنصع الأمثلة على أن أئمة الهدى من آل بيت النبوة لا يدخرون وسعا في نصح الناس وتوجيههم ، تلك الرسالة التي بعث بها الامام العسكري إلى إسحاق بن اسماعيل النيسابوري : ((سترنا الله وإياك بستره ، وتولاك في جميع أمورك بصنعه ، قد فهمت كتابك رحمك الله ، ونحن بحمد الله ونعمته أهل بيت نرقّ على موالينا ، ونسرّ بتتابع إحسان الله إليهم ، وفضله لديهم ، ونعدّ بكلّ نعمة ينعمها الله تبارك وتعالى عليهم ، فأتم الله عليك بالحق ومن كان مثلك ممن قد رحمه وبصّره بصيرتك ، ونزع عن الباطل ، ولم يعم في طغيانه يعمه ، فإن تمام النعمة دخولك الجنة ، وليس من نعمة وإنْ جلّ أمرها وعظم خطرها إلّا والحمد لله تقدّمت أسماؤه عليها يؤدي شكرها. وأنا أقول : الحمد لله مثل ما حمد به حامد إلى الأبد ، بما من الله عليك من نعمته ، ونجّاك من الهلكة ، وسهّل سبيلك على العقبة ، وأيم الله إنها لعقبة كؤود ، شديد أمرها ، صعب مسلكها ، عظيم بلاؤها ، طويل عذابها ، قديم في الزبر الأولى ذكرها. ولقد كانت منكم في أمور أيام الماضي (ع) إلى أن مضى لسبيله وفي أيامي هذه كنتم فيها غير محمود الشأن ، ولا مسددي التوفيق ، واعلم يقينا يا إسحاق أن من خرج من هذه الحياة الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، إنها يا بن اسماعيل ليس تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وذلك قول الله عزّ وجلّ في محكم كتابه حين يقول الظالم : ((رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا)) [١٠] قال الله عز وجل : ((كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)) [١١] وأي آية يا إسحاق أعظم من حجة الله عز وجل على خلقه ، وأمينه في بلاده ، وشاهد على عباده ، من بعد ما سلف من آبائه الأولين من النبيين وآبائه الآخرين من الوصيين ، عليهم أجمعين رحمة الله وبركاته . فأين يتاه بكم؟ وأين تذهبون كالأنعام على وجوهكم؟ عن الحق تصدفون وبالباطل تؤمنون

، وبنعمة الله تكفرون ؟ أو تكذبون ، فمن يؤمن ببعض الكتاب ، ويكفر ببعض فما جزاء من يفعل منكم ومن غيركم إلا خزي في الحياة الدنيا الفانية ، وطول عذاب الآخرة الباقية ، وذلك والله الخزي العظيم . إن الله بفضله ومنّه لما فرض عليكم الفرائض ، لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه ، إليكم ، بل برحمة منه لا إله إلا هو عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليبتلي ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ولتألفوا إلى رحمته ، ولتتفاضل منازلكم في جنّته . ففرض عليكم الحجّ والعمرة وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، والصّوم والولاية ، وكفى بهم لكم باباً ليفتحوا أبواب الفرائض ، ومفتاحاً إلى سبيله ، ولولا محمّد (ص) والأوصياء من بعده ، لكنتم حيارى كالبهائم ، لا تعرفون فرضاً من الفرائض وهل يدخل قرية إلا من بابها . فلمّا منّ الله عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيّه ، قال الله عزّ وجلّ لنبيّه (ص) : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً))[١٢]

وفرض عليكم لأوليائه حقوقاً أمركم بأدائها إليهم ، ليحلّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجه وأموالكم ومأكلكم ومشربكم ، ويعرفكم بذلك النّماء والبركة والثروة ، وليعلم من يطيعه منكم بالغيب ، قال الله عزّ وجلّ : ((قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى)) [١٣]

واعلموا أنّ من يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، وأن الله الغنيّ وأنتم الفقراء لا إله إلا هو))[١٤].

وفي الرسالة بقية إلا أنني تركت الباقي لطولها وفي هذا المقدار ما يكفي لمعرفة الاسلوب الذي تكون عليه رسائل الإمام العسكري، وهي إذْ تبدو جواباً عن رسالة لإسحاق وتبدو خليطاً من آيات ووصايا وخطب للإمام علي وخطبة السيدة زينب بنت أمير المؤمنين ، ونقلها المجلسي وهو متأخر جداً عن زمن العسكري ، والغريب أنّ المؤرخين لم يرووا مثل هذه الرسائل وهي مهمّة و في زمن عدّه المؤرخون تمهيدا لعصر النهضة في الإسلام . ووجّهت الآية الكريمة من سورة المائدة على أنّ النعمة هي الإيصاء للإمام علي بولاية أمر المسلمين ليكون خليفة منصبا من الله تعالى ، وهناك جملة من المفسرين ممن لا يذهبون هذا المذهب ولا يوجّهون مثل هذا التوجيه ، ومنهم ابن كثير ، يقول في تفسير هذه الآية : ((هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الامة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير

نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء ...قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ((اليوم أكملت لكم دينكم)) وهو الاسلام ، أخبر الله نبيه (ص) والمؤمنين أنه أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا)) [١٥]

وقد وقف باحث على هذه أبعاد هذه الرسالة وبيان محتوياتها على النحو الآتي :

أولا : أنها أظهرت سرور الأئمة بما يسديه الله تعالى إلى شيعتهم من النعم والألطاف .

ثانيا : إن الأئمة يتمنون لشيعتهم الفوز بالجنة .

ثالثا : أعرب الإمام عن حدوث فجوة بين أبيه وبين إسحاق وجماعته لكن المصادر لم تكشف ذلك .

رابعا : نعى الإمام على المنحرفين عن الحق .

خامسا : إن الله تعالى أقام الحجة على عباده ببعث النبيين والمرسلين والأوصياء .

سادسا : إن فلسفة الفرائض على العباد لم تكن لحاجة الخالق إليهم ، بل ليميز الخبيث من الطيب .

سابعا : منّة الله تعالى على العباد ببعث النبي محمد (ص) [١٦]

وهناك مسألة مهمة لم يلتفت إليها هذا الباحث الكريم تتمثّل في أنّ العرب كانوا قبل ذلك في الجاهلية وكانوا يتقاتلون فيما بينهم سنوات طوال فأنقذهم الله تعالى برسالة الإسلام وبأخلاق الرسول الكريم (ص) وقد ذكّرهم القرآن الكريم بأسلوب بياني منقطع النظير على نحو قوه تعالى : ((واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون))[١٧].

وأنت إذْ تلاحظ الفرق الكبير بين الرسالة التي بدا فيها الإمام متبرما و " مهددا " ومتوعدا وبين الاسلوب القرآني البليغ ؛ لذا ينبغي إعادة النظر في الرسالة وتدقيقها وتوثيقه ، فالأئمة امتازوا بالصبر وتحمّل المشاق وهم – على رأي شيعتهم – يفضلون الانبياء الاخرين عدا النبي محمد (ص) وهذا يعنى أن لهم مقدرة استثنائية في حمل الناس على طريق الحق والدعوة الصالحة والموعظة الحسنة ، فهم – ببساطة – لا يفكرون بسلطة قدر ما يفكرون بإصلاح الناس والسير بهم سيرة المصطفى الكريم (ص) . وقد أشار

الباحث الكريم في النقطة " ثالثا " إلى تلك الفجوة التي حصلت بين الامام الهادي وبين شيعته أو عموم المسلمين إلى أن المصادر لم تذكر ذلك ، وراح يظن الأسباب التي توضح الفجوة ، وحقيقة الامر لا يمكننا الاطمئنان إلى مثل هذه الامور وتفسيرها استنادا إلى ظن كاتب في العصر الحديث ، نعم أن لديه الحق في الإدلاء برأيه ، لكننا لا نطمئن إلى قضية تخصّ إماما مفترض الطاعة وعلاقته بالناس على مثل تلك التكهنات . فنحن – استنادا – إلى منهج البحث العلمي ملزمون بدراسة الأدلّة وتوثيقها قدر ما نستطيع من دون تصوّر مسبق . وينبغي إعادة النظر في العلاقة بين الأئمة وبين الناس، إذْ نرى أنّ الباحثين " يتصورون " إنّ الناس لا تهتدي وأنّ الأئمة يلاقون العنت من إعراض الناس وتركهم واللحاق بذوي السلطة والجاه، وهذه مسألة فيها الصحيح وفيها غير الصحيح ، فالأئمة من ولد الإمام علي (ع) إنما هم هداة يمثلون جدّهم المصطفى المختار (ص) فلا يبحثون عن حكم ولا يريدون منصبا دنيويا ، فهم غير معنيين بهذا الأمر مطلقا ، لكن الموالين لهم إنما ينطلقون من رغبة عارمة في تنصيبهم حكاما على المسلمين انطلاقا من حقهم ومن كفاءتهم . وينسى هؤلاء الباحثون أنّهم يذكرون أن الأئمة إنما تلتف الناس من حولهم وأنهم أشاعوا علومهم وآراءهم وبثّوها بين الناس وأن شهرتهم طبقت الافاق فكيف يكون ذلك؟ إذا ما وازنا بين فكرة التضييق وعدم إعطائهم حقّهم _ في الحكم – وفي الحقيقة إن أهل السلطان يريدون الحكم لهم وأنهم لا يعطونه لغيرهم مهما تمتعوا بعلم أو بقرابة من رسول الله ، فالمصلحة تغلب هنا ، وقد رأينا ما فعله معاوية بإزاء وجود الإمام علي وخلافته وبيعته ، إنه عصى أمره وخرج عليه ، وما من مسلم إلا يعرف من هو الإمام علي علما وورعا وتقوى وزهدا وسابقة في الاسلام ، ولديه الولاية ؛ كونه من المهاجرين الأوائل ، ولم يكن معاوية ليحظى بأي شيء من ذلك ، وبالمقابل فهو من الطلقاء الذين لم يكن لهم الحق على ولاية المسلمين بنص القرآن ، قال تعالى : ((إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير))[١٨].

وهذه الآية وردت في سورة الانفال، التي تحدّثت عن القتال وعن امور مهمة من الولاية ، وأنها حجبتها عن الذين لم يهاجروا ، لكن المسلمين سكتوا عن معاوية حتى اصبح " خليفة " بخلاف هذه الآية الصريحة التي شملته وشملت غيره حتى بعض الصحابة الذين تربطهم رابطة دم مع رسول (ص) كالعبّاس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم (ص) .فينبغي التفريق بين امور الخلافة والحكم من قبل الناس وبين أهل البيت الذين لم يحركوا ساكنا في قضية الحكم ولم يجهزوا جيشا ولم يعدوا أية مؤامرة تستهدف الإطاحة – دمويا – بالحكم القائم في أية حقبة . وهناك حقيقة ساطعة تتمثل في ان محبة الناس لآل البيت الأطهار والسير على نهجهم وإطاعة اوامرهم ونواهيهم – التي لا تعارض الشريعة المحمدية بطبيعة الحال – أسمى وأرقى من حكم رسمي ، فهم قريبون من الناس لا يبخلون عليهم بنصح ولا بإرشاد أو توجيه ، وهم لا يبخلون على الحكم أيضا بأي نصح يخدم المسلمين على غرار ما فعله الإمام علي مع الخليفة عمر بن الخطاب وما فعله الإمام الباقر مع الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان والإشارة الاقتصادية العظيمة بسكّ النقود وتخليص الاقتصاد الإسلامي الذي كان مرتهنا بالنقود البيزنطية ، أولئك هم أئمة الهدى من أهل البيت الأطهار. وكان الامام العسكري ((يستغل اية فرصة لبيان خطأ الغلاة وانحرافهم عن الصراط المستقيم وكان يظهر التبري منهم))[١٩] ومع المدة لقصيرة التي قضّاها العسكري في الامامة فضلا عن عمرة الذي لا يتعدّى الثمانية وعشرين سنة ، إلّا أنّه ترك بصمة واضحة في تاريخ أئمة أهل البيت – بنظر الشيعة – وأنّه سار سيرة آبائه من الأئمة الذين سبقوه من ورع وتقوى والعناية بالناس ونشر العلم والتصدي علمياً – قبل كلّ شيء – إلى الفرق الضالة والمنحرفة سواء التي تفرّعت من الفكر الشيعي ام الفكر الإسلامي عموما أم من غير المسلمين من يهود ونصارى وملل ملحدة وكافرة لا تؤمن بوجود الله أصلاً .

ثانياً : نشاط الإمام الحسن العسكري وأثره العلمي:

لقد انتهينا في الفقرة السابقة إلى أنّ الإمام العسكري كان يبذل جهوداً كبيرة من أجل الدين ومن أجل النهوض بواقع المسلمين من النواحي العلمية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها غير آبه بالضغوطات الكبيرة التي يتعرّض لها من قبل الحكّام . وكان لا يدّخر وسعاً في ذلك . وأكبر أثر علمي نسب إليه هو التفسير الذي

فسّر فيه سورة الفاتحة وقدرا من سورة البقرة ، وللأسف الشديد يقال : المنسوب له ؛ فلم يتمكن العلماء من التأكيد على صحة نسبته للإمام ، أو في الأقل لم يتمكنوا من إثبات التفسير كله له ، وللأسف مرة أخرى إنّ المثبتين للتفسير من الشيعة ، وهذه مسألة تدعو إلى الاستغراب ، إذْ أنّ نشاطاً علميّاً في غاية الأهمية لا ينبغي أنْ لا يحظى بالعناية الكاملة من لدن علماء المسلمين ، وليتهم كانوا على قدر المسؤولية التاريخية وتخلّوا عن عصبيتهم المذهبية ، وجعلونا نحظى بكنز علمي عظيم وبأثر علمي من أهل البيت الأطهار .

فالقائلون بصحة التفسير هم :

الشيخ الصدوق ت ٣٨١هـ والشيخ الطبرسي ت ٥٤٨هـ و القطب الراوندي ت ٥٧٣هـ وابن شهر آشوب ت ٥٨٨هـ والشيخ علي بن عبد العالي الكركي ت ٩٤٠هـ والشهيد الثاني ت ٩٥٢هـ والحر العاملي ت ١١٠٤هـ والمجلسي ت ١١١١هـ وغيرهم كثير [٢٠]

وقد كان ابن شهر آشوب قد جزم بصحة التفسير هذا وكان يروي عنه في مواضع عديدة ، قال : إن الحسن بن خالد البرقي أخا محمد بن خالد البرقي هو الذي كتب (تفسير الإمام العسكري " ع " بإملاء من الامام ، ويقع في مائة وعشرين مجلدا [٢١]

وكان ابن شهر آشوب قد ناقش سبب تضعيف العلماء لنسبة التفسير ومرده إلى رواية التفسير بسند الآسترابادي الذي يعد ضعيفا في نظر العلماء ، وذكر أن للسند طريقا آخر غير طريق الآسترابادي .

أما القادحون بنسبة التفسير فهم :

ابن الغضائري ت ٤١١هـ والعلامة الحلي ت ٧٢٦هـ والمقدس الاردبيلي ت ٩٩٣هـ ومحمد أمين الاسترابادي ت ١٠٢٣هـ وغيرهم ، ومن المحدثين السيد الخوئي إذْ قال : ((التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري "ع" إنما هو برواية علي بن محمد بن يسار وزميله يوسف بن محمد بن زياد ، وكلاهما مجهو الحال ولا يعتد برواية أنفسهما عن الامام "ع" اهتمامه بشأنهما وطلبه من أبوبهما إبقاءهما لإفادتهما العلم الي يشرفهما به . هذا مع ان الناظر في هذا التفسير لا يشك في أنه موضوع ، وجلّ مقام عالم محقق أنْ يكتب مثل هذا التفسير ، فكيف بالإمام "ع" [٢٢]

ويبدو إن المغالاة في هذا التفسير وانحراف موضوعات فيه عن طريق الحق ومخالفة أصول الدين أو ما عليه المذهب ؛ هي التي دفعت الغيورين من علماء المذهب الشيعي إلى إنكار صدور مثل هذا التفسير من إمام معصوم . ويبدو أن الغلاة هم الذين دسّوا موضوعات معينة لتضليل الناس وحصولهم على مصالح معينة ، ولم يدر بخلدهم أنّهم يضرون بالمذهب الشيعي أو هم على علم بما يقومون به من أجل الوصول إلى أهداف محددة . ويأتي استنكار العلماء المحققين نسب التفسير إلى الإمام العسكري ما رأوه فيه من ضعف وتخليط وتناقض ولا يصح ما صدر فيه من ضعف في الوازع الديني من إمام عُرف بعلمه وبفضله وبورعه .وكان الإمام قد تحدّث حول القرآن ووجوب أنْ لا يدي المفسّر برأيه فيه ويربط أخذ القرآن من أهل البيت ؛ لانهم الأمناء عليه من كل تحريف أو شطط يلحق بتفسير لا بنصّه إذْ تكفّل الباري عزّ وجّل حفظ القرآن بقوله : ((إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون))[٢٣] فقد روي عنه أنّه قال : ((فإن أخطأ القائل في القرآن برأيه ، فقد تبوّأ مقعده من النار ، وكان مثله مثل من ركب بحراً هائجاً بلا ملّاح ولا سفينة صحيحة ، لا يسمع بهلاكه أحد إلا قال: هو أهلٌ لما لحقه ، مستحقٌّ لما أصابه))[٢٤] وهو بهذا يذهب في توجيه الآية التي ورد فيها " الراسخون في العلم " إلى أنّ المقصود بـ " الراسخين " هم أهل البيت تحديداً وليس عموم العلماء الذين يتقنون صنعتهم في كلّ علم ، قال تعالى : ((وما يعلم تأويله ، إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا))[٢٥]

فهناك من يقف عند قوله تعالى : والراسخون في العلم ، فيعطفها حينئذٍ على لفظ الجلالة . ومنهم من يعّد الواو استئنافية ويلحق بها : يقولون آمنّا فتكون متعلّقة بـ " الراسخين " وبهذا يكون العالم بتأويل القرآن : هو الله وحده . وقد يرد سؤال وجيه يتمثّل بالآتي: إذا لم يعلم تأويله إلا الله أو إلا الله وأهل البيت فقط هل يكون حجّة على الناس؟ أقول: إنّ التأويل شيء والتفسير شيء آخر فالتفسير معروف وأنّ آيات القرآن المحكمات معروفة، والمسلمون يعرفون الشريعة المحمدية الواضحة، لكنّ قضيّة التأويل لا تشمل الناس جميعاً، وقد يكون من يقوم بالتأويل عرضة للشطط أو الخطأ أو يضغط عليه أو يدسّ من جهات منحرفة تريد تخريب الدين والعبث بمقدّرات المسلمين ؛ لهذا طلب الإمام علي " ع " من ابن عبّاس أنْ لا يحاجّ الخوارج بالقرآن

، فإنّ القرآن حمّل ذو وجوه . وهو على صواب ؛ لأنّه قال لابن عبّاس : تقول ويقولون . وهو على دراية بالخوارج وطلب من أنْ يحاجّهم بالسنّة النبويّة ، إذ قال: ((لا تخاصمهم بالقرآن ، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكن حاجهم بالسنة ، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا))[٢٦]

، فهي واضحة وهم سمعوا النبي (ص) وعرفوا مقاصده قولا وعملا. ومما نقلوا عن الإمام العسكري في تفسير البسملة إذْ قال أبو هاشم الجعفري : سمعت أبا محمّد " ع " يقول: ((بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها))[٢٧]

وقال أيضاً في البسملة : الله هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق ، عند انقطاع الرجاء من كلّ مَنْ هو دونه ، وتقطّع الأسباب من جميع ما سواه . نقول: بسم الله الرحمن الرحيم : أستعين على أموري كلّها بالله الذي لا تحقّ العبادة إلّا له ، المغيث إذا استغيث به والمجيب إذا دعي . وتفسير الإمام العسكري " ع " لقوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، هو من خير ما تفسّر به البسملة باختصار . فالباء في أولها تعني الاستعانة بذكر اسمه تعالى الذي هو رحمن يعطف على خلقه ، ورحيم شديد الرحمة لهم ، إذْ يستجيب لدعائهم ويرأف بهم كباراً وصغاراً . وقال في تفسير ((اهدنا الصراط المستقيم))[٢٨] أدمْ توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا ، حتّى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا ، والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة . وأما الصراط المستقيم في الدنيا ، فهو ما قصر من الغلو ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل . وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة ، الذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنة إلى النار، ولا إلى النار سوى الجنة ، وقال عن قوله : ((اهدنا الصراط المستقيم)) باختصار : أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك ، والمبلغ إلى رضوانك وجنتك ، والمانع من أنْ نتبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك[٢٩]

وورد مثل هذا التوجيه عن بعض آبائه بلفظه، والبسملة خير ما يبدأ به كلّ عمل ، ولا يحسن بالمسلم أنْ يشرع بشيء مهما كبر أو صغر إلا بعد أنْ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، إذْ ورد عن النبي (ص) وعن أهل بيته الاطهار "ع" أنّ كلّ عمل لا يبدأ بها يعتبر أبتر أقطع !

فكيف إذا علمنا أنّها أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها؟ ! وإذا قال الإمام إنّها كذلك ، فلا ينبئك مثل خبير. [٣٠]

وقد نقلوا أنه قد ((خرج من عند أبي محمد "ع" في سنة خمس وخمسين ومائتين ، كتاب ترجمته – أي اسمه – كتاب : المنقبة ، وقيل كتاب : المقنعة يشتمل على أكثر من علم الحلال والحرام ، وأوله : أخبرني علي بن محمد بن علي بن موسى ...الخ وذكر الخيبري في كتاب سماه : مكاتبات الرجال ، عن العسكريين ، قطعة من أحكام الدين))[٣١]

ومعنى هذا أن هذا الكتاب مفقود مع من فقد من الكتب الكثيرة . ومع هذا فقد ذكرت مصادر المسلمين أن الامام العسكري كان كآبائه أستاذا للعلماء وقدوة وعلما يشار إليه بالبنان ، حتى وصف بالقول الآتي : ((كان عالما ثقة ، روى الحديث عن أبيه عن جده))[٣٢]

وكلمة سبط ابن الجوزي حين يقول: عالم ثقة ، وهو يشير إلى رواية الحديث النبوي ، لم ترد اعتباطا ، بل مقصودة ، والثقة أهم شيء في علم الحديث ، فكانت بحق كلمة مهمة صدرت من عالم من مذهب آخر غير المذهب الشيعي . وحين يسأل الامام العسكري: ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهما واحدا ويأخذ الرجل سهمين؟ قال : إن المرأة ليس عليها جهاد ، ولا نفقة ، ولا معقلة ، وإنما ذلك على الرجال ؛ ولذلك جعل للمرأة سهما واحدا وللرجل سهمين [٣٣]

وقد بذل جهدا عظيما في التصدي للفرق الكثيرة التي كانت منتشرة وقد مر ذكرها، لكنه حدد الخطوط العريضة لآراء الصوفية وأفكارها، وحذر منها المسلمين حفاظا على عقيدتهم من الانحراف على يدي هؤلاء الذين يصعب تمييزهم من غيرهم[٣٤]

وكان يتجه في حواره معهم اتجاهات تخدم الحجاج الذي هم عليه ؛ من أجل إقناعهم بفكرته ، ويذهب في الاستدلال على ما يقول إلى عصر النبي (ص) حين ولّى عليّاً "ع" لمخاطبة جماعة من المرتدين واليهود فحاججهم الامام علي بهدوء وبعلم وبإقناع وعند ذلك خرست اليهود ، وآمن بعض النظارة الآخرين ، فذلك ما قال الله تعالى : ((لا ريب فيه))[٣٥]

إنه كما قال محمد ، ووصي محمد عن قول محمد (ص) عن قول رب العالمين [٣٦]

وصدرت عنه بعض الحكم التي احتفظت المصادر بها ، منها :

- حب الابرار للأبرار ثواب للأبرار . وحب الفجار للأبرار فضيلة للأبرار ، وبغض الفجار للأبرار زين للأبرار ، وبغض الأبرار للفجار خزي على الفجار.
- لا تمارِ فيذهب بهاؤك . ولا تمازح فيجترأ عليك .
- من رضي بدون الشرف من المجلس ، لم يزل الله وملائكته يصلون عليه حتى يقوم .
- من التواضع السلام على من تمر به ، والجلوس دون شرف المجلس .
- من الجهل الضحك من غير عجب .
- من الفواقر التي تقصم الظهر ، جار إن رأى حسنة أخفاها ، وإن رأى سيئة أفشاها .
- ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة ، وإنما العبادة كثرة التفكر في أمر الله .

بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطري أخاه شاهدا ويأكله غائبا إن أعطي حسده ، وإن ابتلي خانه[٣٧].

ثالثاً : ظروف العصر وظلالها على الإمام العسكري:

إن الامة الاسلامية مرت بمنعطف خطير تمثل بعلاقة الدين بالسياسة ، ونحن حين نقرأ حياة الرسول (ص) ومن بعده خلافة الامام علي "ع" لا نرى الامر مثلما صورته الكتب في أن أئمة أهل البيت كانوا يمارسون ((دورهم السياسي المعارض للحكام ، وقادة للرأي العام وللقطاع الواعي لتلك الانحرافات السلطوية))[٣٨]

وإذا لاحظنا أئمة أهل البيت العلوي من بعد علي "ع" لم يقوموا بأي دور سياسي يرافقه تصعيد عسكري ؛ من أجل الاستيلاء على السلطة ، وكثيرا ما نسمع أنهم يؤتى بهم للخليفة ؛ نتيجة شائعات معينة ولكنهم في وضع العبادة والتهجد ليلا على غرار ما حصل للإمام الهادي مع المتوكل . وربما يعود الامر إلى رغبة المظلومين من المسلمين بتولي أهل البيت مقاليد الحكم ؛ لما عرف عنهم من تقوى وعدل وصلاح ، أو إلى جماعة حاقدة تريد أن تصور اهل البيت وهم يقومون بمؤامرات على الخلافة ؛ من اجل إعطاء السلطة

غطاء قانونيا لمضايقتهم وملاحقتهم ، أو إلى من يريد النيل من الاسلام وهم من ديانات أخرى تهدف إلى تمزيق وحدة المسلمين وتفريقهم بين طوائف شتى ثم تمزيق الطائفة الواحدة وهكذا ، فحقيقة الامر إن تفرقة المسلمين تخدم أعداء الاسلام .

وفي هذه الاثناء كان الضعف يدبّ في جسد الدولة الاسلامية، فبعد وفاة هرون الرشيد الذي قسّم الخلافة بين أبنائه الثلاثة (الامين والمأمون والمعتصم) أخذ الخلاف يدب بين أبنائه وكان قراره غير حكيم ، فالسلطان لا يتسع لغير واحد ! ومما ساعد في اضمحلال الدولة أنِ استعان المأمون بالأعاجم على أخيه وأدخلهم في الحكم – مثلما فعل الرشيد قبله – ثم استبدل المعتصم الفرس بالأتراك وكانوا وبالا على وبال، فإذا كان البرامكة ذوي دراية وحنكة بالإدارة – مع بغضهم لآل البيت – كان الاتراك من الهمج الرعاع – مع بغضهم لآل البيت – ولم يتوقف مستوى الضعف عند الدولة عموما ، بل تعداه إلى داخل القصر إذْ لم يسلم الخلفاء من السحل أو سمل العيون أو القتل وكان الأتراك يجلسون على الخليفة حتى يختنق فيموت ، وذكرت كتب التاريخ ذلك مفصلا[٣٩]

فقد ذكر اليعقوبي المعتز بقوله: ((وضعف أمر المعتز حتّى لم يكن له أمر ولا نهي وانتفضت الأطراف))[٤٠]

والذي لا يذكره التاريخ بأهمية واضحة – للأسف – إن الدولة إذا قامت بقتل الناس فانّها ستزول لا محالة مهما كانت الحجج والبراهين التي تتبعها ؛ لذلك نرى النبي (ص) عفا عن مشركي قريش حتى عفا عن " وحشي " قاتل عمه حمزة أسد الله وأسد الرسول[٤١] ؛ لمعرفته (ص) بحرمة الدم الكبيرة وأنّه يهدم الدولة مهما كانت قوية لا سيما إذا بدأت بالدم . والتاريخ شاهد على إمبراطوريات عظيمة سرعان ما سقطت وانتهت ، فضلا عن جدلية التاريخ المحتومة باضمحلال الدول ، ومشيئة الخالق سبحانه وتعالى وإرادته في قوله تعالى : ((إنْ يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين))[٤٢]

وإلّا كيف تكون الحجة على الخلق ، وعندما ظُلم بنو إسرائيل كانت إرادة الله تعالى أن يمن عليهم إذْ قال : ((ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)) [٤٣]

والمفارقة أنّ بني إسرائيل لمّا من الله تعالى عليهم وجعل منهم الأنبياء والملوك، صاروا يقتلون النبيين بغير الحق وهذا دأب كل مستضعف يمسك سلطة فإنه يقوم بـ " تقليد " جلاده!، قال تعالى: ((وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين))[٤٤]

فقد من الله عليهم بنعم كثيرة وأنجاهم من آل فرعون، فما لبثوا أن قابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران، قال تعالى: ((وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين)) [٤٥].

ولم يتوقف الأمر على المؤامرات من داخل القصر وخارجه ، بل أخذ الغلمان والعبيد يتجرؤون على الخليفة وتدبير المكائد له ؛ لضعفه الشديد أولا ؛ إذ ليس كل ابن خليفة بقادر على أن يكون خليفة فهذه مشكلة الوراثة ؛ ولانشغاله ثانيا باللهو والعبث ، فلم يباشر عمله بالصورة الصحية ؛ فإنه لم يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وكأن إدارة الدولة لعبة سهلة : ((وبلغ المعتز أن بغا قد عزم على الوثوب به ، فدبر على قتله ، فلما بلغه ذلك هرب فصار إلى ناحية الموصل وهو يقدر أن أكثر الاتراك وغيرهم يستلحقونه فلم يلحقه أحد فانصرف راجعا في زورق فأخذه أصحاب المسالخ وكوتب المعتز بخبره فأمر بضرب عنقه فضربت عنقه ونهبت داره ونفي ابنه فارس إلى المغرب في سنة ٢٥٤ . ولما خاف المعتز وثوب الأتراك أشخص من كان بسر من رأى من الهاشميين من أولاد الخلافة وغيرهم إلى بغداد لئلا يخلس الأتراك أحدا منهم))[٤٦]

ونقل الطبري صورة أخرى من عبث الأتراك بالدولة وبالمعتز : ((فذكر أنه لما خلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ثم جصصوا سردابا بالجص الثخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتا))[٤٧].

وهكذا لم يرد الدخلاء إلا القضاء على الخلافة وسلبها من العرب ؛ لانهم تفرقوا فضعفوا ومزقتهم المؤامرات ، وهذا يعطينا صورة واضحة أنها لو كانت الخلافة قد وجدت الدليل على قيام أحد من الأئمة بتنظيم سري لما سكتوا عنه ، فهم – من أجل الحكم – لا يراعون إلا ولا ذمة مع أهل البيت أو مع غيرهم .وهذا ما ذهبت إليه من أن بعض المنتفعين كانوا يصورون أن الأئمة يكيدون بالخلافة ويعملون بالسر على ذلك .

وإذ رأينا البؤس من قبل الحكم العباسي كان ذلك يشق على الإمام أن يرى الدخلاء يعبثون بأمن الدولة وأمن الخلفاء ، فهم أبناء عمومتهم من الهاشميين ، ثم إن الأمر انعكس سلبا على أوضاع المجتمع من الناحية الأمنية ، إذ كان الأتراك مزعجين غلاض الكبد لا يحترمون الناس ويدهسون بالدواب وهم يمشون في الأسواق . وأدى أيضا إلى انتشار الأمراض والأوبئة ومات – من جراء ذلك خلق كثير وازداد الفقر والغلاء فاضطر الناس إلى ترك مكة بعد الفقر الشديد إلى البلدان المجاورة [٤٨] يقابل ذلك سفه في القصور وبذخ من دون التفكير بالأعباء التي يتحملها الناس دون ذنب أو جريرة [٤٩] فضلا عن تردي الأوضاع الأخلاقية والسياسية والإدارية وقاد ذلك إلى فوضى فكرية ، كان الإمام العسكري – مثله مثل كل غيور عالم – لا يرضى بالفساد قد تصدى لهذا ، وهذه مسألة طبيعية ينبغي أن ينحى قبل كل شيء عنها الطمع بالخلافة ؛ لأنه من أهل البيت ، وهذ أمر يختلط على كثير من الناس ، فهمّ الإمام هو الإصلاح كبقية آبائه ، فهل سلّ الإمام علي " ع " سيفا على أحد ؟ وهل سلّ الإمام الحسين "ع " سيفا على معاوية؟ هذه هي الحقيقة الواقعية ، إن أهل البيت يرفضون الظلم والفساد ، فإذا سار حاكم ما بسيرة مقبولة لا يعارضونه ، لكنه إذا طغى وأفسد فإنهم يناوئونه ، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الحنيف . وبهذا يندفع ما ذهب إليه باحثون من أن أهل البيت معارضون عن طريق أسلوب الثورة والكفاح المسلح وضربوا أمثلة من تاريخ الإمام علي " ع " والإمام الحسين " ع " [٥٠] فلماذا لم يذكروا بقية الأئمة؟ وهل عارض الإمام علي " ع " أحدا بسيف؟ أين حصل هذا؟ والحق أن علياً " ع " لم يقد جيشا ولم يتولى كفاحا مسلحا، بل كان هو الخليفة وغيره من قام بمعارضته بعد مبايعته وقادوا كفاحا مسلحا ضده! ولم يقد الإمام الحسين كفاحا مسلحا في عهد معاوية التزاما بعام الصلح المبرم بين معاوية والإمام الحسن " ع " لكن معاوية خرق الاتفاق فلم يبايع الحسين " ع

" يزيد ، وهذه حقيقة ناصعة ، ويوم الطف طلب الحسين "ع" من أنصاره المغادرة – حقنا للدماء – ومن يريد السلطة لا يفعل ذلك إذ نرى الحاكم يختبئ وراء الجنود ويهرب متى ما سنحت الفرصة ، لكن الإمام طلب منهم المغادرة وبقي هو وأهل بيته وأصحابه المقربون الذين رفضوا المغادرة .ولا يتعدى عددهم السبعة والسبعين أو الثمانية والسبعين وأكثرهم من الصحابة الشيوخ أو الغلمان وأكثر الشهداء من آل طالب من ولد عقيل وولد الإمام علي " ع " فأين جيش الإمام الحسين وأين تنظيمه؟ ثم لم لمْ يذكر هؤلاء الباحثين بقية الائمة ، فهل كان للإمام الصادق جيش؟ أين هو إذا؟ وهل كان للإمام الهادي أو الإمام الرضا أو الإمام الجواد أو الإمام الكاظم؟ هذا هو الواقع إن أهل البيت أئمة وهداة أرادوا الإخلاص والإصلاح لأمة الرسول (ص) . وهناك حقيقة تتمثل بالآتي : هي إن الأئمة كانوا يستدعون من الخلافة لوضعهم تحت النظر – خوفا منهم ومن مكانتهم في نظر المسلمين – فيلجؤون إلى التقية للتخلص من الظلم وهذا مشروع لهم ولغيرهم بنص القرآن الكريم [٥١] وهي خاصة بالكافرين اللهم إلا إذا عُدّ الخلفاء من الكفار ، وأكبر الظن أن الإمام يتجنّب المعارضة الواضحة ويستعيض عنها بالفعل الحسن وبنشر العلم ، وقد لمسنا ذلك ، فهو – على صغر سنه – تمكن من نشر علمه ومن تكوين مدرسة علمية ذائعة الصيت وتنشئة طلاب على درجة كبيرة من التقوى والعلم والعمل الصالح .وجعل من الوكلاء الذين ينوبون عنه – بعد أن علم صدقهم وعدلهم – منارا لنشر الفضيلة والعلم .وكان لا يعرضهم إلى أية درجة من الخطر ويرفض " ع " المواجهة مع السلطة أو التصدي له من دون علمه وأمره [٥٢]

وكان شديد العناية ((بالصفوة والخواص من أصحابه وطلابه ، وقد عمل على بناء كوادر علمية مؤهلة رغم الظروف القاسية التي عاشها ...وقد كان لهؤلاء الأصحاب والتلامذة دور مهم وفاعل في تدوين ونشر علوم ومعارف الإمام الحسن العسكري "ع" وتأليف الكتب والمصنفات، وحفظ التراث العلمي والفكري للإمام العسكري "ع" من الضياع ، وإيصاله للأجيال القادمة ، وربط الناس بمنهج وفكر أئمة أهل البيت "ع")) [٥٣]

ومن هذا يتبين لنا – بجلاء – أنّ الإمام العسكري كان يدعو إلى الله دعاء خالصا لا تشوبه شائبة إذ كان يقول غير متبرم ولا جازع : ((إني دعوت الله أن يفرغني للعبادة ففعل)) [٥٤]

حتى قال خصمه عبيد الله بن خاقان لابنه أحمد: ((لو زالت الخلافة عن بني العباس ما استحقها أحد من بني هاشم غيره ، لفضله وعفافه وصومه وصلاته وصيانته وزهده وجميع أخلاقه)) [٥٥]

وكان يقابل الإساءة بالإحسان فحين انتدبه الخليفة من السجن لكف النصراني "الجاثليق" الذي كان يستنزل المطر فعجب الناس وصغا بعضهم الى النصرانية فأخرجه الخليفة من سجنه وقال له : أدرك أمة جدك محمد ، فقال "ع" : لا أُزيل الشك عن الناس وما وقعوا فيه من هذه الورطة التي أفسدوا فيها عقولا ضعيفة فخرج إلى الناس وفضح ذلك النصراني بأن أمر بقبض يده عندما يستسقي فوجد فيها عظم آدمي ولف العظم بخرقة فانكشفت السحب ولم تمطر ؛ لان العظم يعود إلى نبي فسر المسلمون والناس بذلك [٥٦]؛ من أجل المسلمين ، ولم يقل للخليفة إنك سجنتني فلا علاقة لي! بل كان لا يعبأ بشيء ولا يثنيه عن واجبه المقدّس فهو امتداد للرحمة المحمدية: ((وما أرسلناك إلا رحمة للمؤمنين)) [٥٧]

وكان لا يجزع من السجن بل اتخذه منارة لنشر العلم والعبادة والتوجيه السديد للمسلمين . فكانت همّته عالية ومروءته موجودة على الدوام وكان برّا بأصحابه وبالمسلمين لا يعرّضهم إلى أي شيء يهدّد حياتهم وأمنهم.

الخاتمة:

– تمكن الامام العسكري – على قصر المدة التي عاشها – من أنْ يؤثّر في مجتمعه والاوساط العلميّة ، واستطاع من تكوين جماعة من الوكلاء الثقاة والطلاب النجباء نشروا علمه في كافة أصقاع الدولة الإسلامية.

– كان الامام العسكري يدعو إلى الوسطيّة وينهى أتباعه عن الغلو في آل البيت "ع" وكان يعلن البراءة منهم ومن الفرق الضالة والمنحرفة.

– لم يخطط الامام إلى الاستيلاء على الحكم بخلاف ما كان يشيعه بعض المؤلفين؛ لأغراض مختلفة .

– لم يصل إلينا ما يثبت أنه استعمل العنف في الدعوة إلى الله تعالى أو يحرّض عليه، بل كان يحاور ويناظر وأحيانا يكفّر بعض الفرق الضالة والمنحرفة .

– إنّ مراقبة الدولة له لا تنمّ عن قوّة لها، بل كانت دولة ضعيفة تتنازعها المؤامرات والدسائس، وهي خائفة على نفسها من أنْ يتجه الناس إلى إمام من أئمة الهدى .

– كان تأثير الإمام العسكري كبيراً مع أنه كان تحت الإقامة الجبرية والعيون وزجّ به في السجون، ولو تركت له حرية الحركة لكان تأثيره أكبر بطبيعة الحال .

– كان الاضطراب الذي رافق انتقال الحكم بين ثلاثة من الخلفاء قد أثّر تأثيراً كبيراً في الأمّة الاسلامية وفي الامام أيضا لما رافقه من ضعف وتخبط في السياسة، وتقلب في المزاج إذِ انعكس سلباً على الحركة العلمية التي يقودها الامام وأتباعه .

– لم يركّز الامام على طريقة واحدة في هداية الناس، بل كان يقسّر ويوجّه الرسائل ويرد على الرسائل وعلى الكتب التي ترد إليه وعلى الاستفتاءات فضلا عن التوجيه المباشر والدرس العلمي والحكم التي كان يدبجها .

– إنّ عصره كان عصر ازدهار ؛ لاستقرار المدارس العلمية والفكرية والذي مهّد بعد مدّة إلى العصر الذي عرف بعصر النهضة للإسلام ، مع التضييق السياسي الي مُورس ضدّه .

الهوامش:

(١) ظ تفصيل ذلك في :المنهج الرسالي للامام الحسن العسكري "ع" :٢٨٩ . فقد تحدثت الكاتبة عن الامام وخلفاء عصره.

(٢) الامام الحسن العسكري : ٧ – ٨ .

(٣) القاموس المحيط: مادة عسكر .وظ : بحار الأنوار : ٥٠ / ١١٣ .

(٤) المناقب : ٤ / ٤٢١ .

(٥) ظ : دلائل الإمامة للطبري : ٤٢٣. و إعلام الورى : ٣٦٧ . و التتمة في تواريخ الأئمة : ١٤٢ . وغيرها من الكتب .

(٦) الأعراف : ١٨٨ .

(٧) ظ : الفصول المختارة : ٢٥٧ – ٢٥٨ . و كمال الدين : ١٠ / ٢٢٢ .قال الشهرستاني : ((إن الغلاة الذين غلو في حقّ ائمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم بأحكام الإلهية فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله وربما شبهوا الإله

بالخلق)) الملل والنحل : ١/ ١٤٠ . وكان الإمام الجواد لا يرضى عن فرقة المفوضة التي تصنع هذا الصنيع ، ظ:سيرة الإمام الحسن العسكري:٢٣١

(٨) ظ : أعلام الهداية ، الامام الامام الحسن العسكري : ١٩٤ .

(٩) الشورى : ٢٣ .

(١٠) سورة طه : ١٢٥ .

(١١) سورة طه : ١٢٦ .

(١٢) المائدة : ٣ .

(١٣) الشورى : ٢٣ .

(١٤) بحار الأنوار : ٥٠ / ٣١٩ – ٣٢٢ . وهناك رسائل أخرى منه تلك الرسالةالتي بعثها الإمام إلى أهل قم ، وإلى عبد الله البيهقي .ظ : حياة الإمام العسكري : ٧٩ .

(١٥) تفسير القرآن العظيم : ٢ /١٤ .ولم يكن ابن كثير وحده الذي ذهب هذا المذهب ، بل جملة من كبار المفسرين كالطبري .

(١٦) الإمام الحسن العسكري : ١٩٣ – ١٩٥ .

(١٧) آل عمران : ١٢٣ .

(١٨) الأنفال : ٧٢ .

(١٩) سيرة الامام الحسن العسكري :٢٢٨ .

(٢٠) ظ : التفسير المنسوب للإمام العسكري : ١٠٤ – ١٠٥ .

(٢١) ظ : معالم العلماء : ٢٩ .وظ : التفسير المنسوب للإمام العسكري : ١٠٤ .

(٢٢) معجم رجال الحديث : ١٣ / ١٥٩ .

(٢٣) الحجر : ٩ .

(٢٤) وسائل الشيعة : ١٨ / ١٤٩ .

(٢٥) آل عمران : ٧ .

(٢٦) نهج البلاغة : ٤٨٣ .

(٢٧) تحف العقول : ٣٦١ .وإثبات الوصيّة : ٢١٢ .

(٢٨) الفاتحة : ٦ .

(٢٩) وسائل الشيعة : ١٨ / ٣٠ .

(٣٠) معاني الأخبار : ٤ – ٥ و ظ : الحسن العسكري "ع" :٣٤١ .

(٣١) مناقب آل أبي طالب : ٤ / ٤٢٤ . وظ : الحسن العسكري : ٣٦٢ .ونقل عن أحاديث الامام العسكري عن طريق العلماء والمشايخ كالحافظ البلاذري والحاكم وأبي الفرج وعبد الله بن عطاء الهروي وغيرهم .ونقلوا له من الحكم الكثيرة ، ظ : تحفة العقول : ٣٦٢ وما بعدها .

(٣٢) تذكرة الخواص : ١٢٠ ، وظ : وقائع المؤتمر السنوي الرابع ١/ ١٣٢ .

(٣٣) الكافي : ٧ / ٨٥ .

(٣٤) شذرات من حياة الامام العسكري : ٥/١ .

(٣٥) البقرة : ٢ .

(٣٦) ظ : حلية الابرار : ٢ / ٤٨٠ – ٤٨٢ . وظ : الحسن العسكري : ٣٦١ .

(٣٧) ظ : تحفة العقول : ٣٦٢ – ٣٦٤ . وظ : الحسن العسكري : ٣٦٨ – ٣٧١ .

(٣٨) الإمام الحسن العسكري "ع" : ٢٧ .

(٣٩) ظ : الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقى ، وفتوح البلدان للبلاذري . ومروج الذهب للمسعودي . وغيرها من كتب التاريخ .

(٤٠) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ٥٠٢ .

(٤١) ظ : رسالة الإمام الشيرازي : إذا قام الإسلام في العراق ، المقدمة وما بعدها .

(٤٢) آل عمران : ١٤٠ .

(٤٣) القصص : ٥ .

(٤٤) المائدة : ٢٠ .

(٤٥) البقرة : ٩١ .

(٤٦) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ٥٠٣ .و ظ : الإمام الحسن العسكري : ٢٨ .

(٤٧) تاريخ الطبري : ٧ / ٥٢٧ .

(٤٨) ظ : تاريخ اليعقوبي : ٢ / ٥١٠ . و ظ : تاريخ الطبري : ٨ / ١٧ .

(٤٩) صورت كتب التاريخ بذخ الخلفاء ونسائهم ، ظ : على سبيل المثال : تاريخ الطبري : ٧ / ٥٣١ . وتاريخ اليعقوبي : ٢ / ٤٩٩ .

(٥٠) ظ مثلا : الإمام الحسن العسكري " ع " : ٣٤ .

(٥١) ((لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير)) آل عمران : ٢٨ .والتقية هنا من الكافرين بنص الآية .

(٥٢) ظ : الإمام الحسن العسكري " ع " : ٣٥ – ٣٦ وفيه صور عن عمل الوكلاء وكيف يتعامل الإمام – بسرية – مع السلطة خوفا على الناس . و ظ : ٤٣ : منه وفيها صور مما قامت به السلطة من سجن للإمام وبعض أتباعه ، وكان الإمام يقوم بالدعاء والتوجيه من السجن وحظ الناس على الصبر .و ظ : بحار الأنوار : ٥٠ / ٢٥٨ . والأنوار البهية للقمي : ٢٦٤ ففيه صور مماثلة . وظ:كشف الغمة :٢/٢١٢وفيه انه كان يراسل شيعته في قم وآبه .

(٥٣) سيرة الإمام الحسن العسكري "ع" : ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٥٤) ظ : سفينة البحار : ١/ ٢٦٠ .

(٥٥) نور الأبصار : ٣٣٧ .

(٥٦) الفصول المهمة : ٢ / ١٠٨٥ – ١٠٨٦ . وظ : الإمام الحسن العسكري"ع" ورواياته الفقهية دراسة في المتون : ٥٩ . وظ:دور الامام الحسن العسكري في مواجهة البدع والانحراف العقائدي.

(٥٧) الأنبياء : ١٠٧ .

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. الارشاد للمفيد. دار المفيد للطباعة والنشر .بيروت.ط٢ ١٩٩٣.

٢. أصول الكافي للكليني.دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع.بيروت.٢٠٠٨.

٣. أعلام الهداية – الامام الحسن بن علي العسكري.المجمع العالمي لاهل البيت.قم المقدسة.ط٢ ١٤٢٥هـ.

٤. إعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي.مؤسسة آل البيت.قم.ط١ ١٤١٧هـ.

٥. الإمام الحسن العسكري لحسين الشاكري.موسوعة المصطفى والعترة . قم ط١ ١٤٢٠هـ .

٦. الامام الحسن العسكري "ع" وحدة الهدف وتعدد الاساليب للدكتور محمد حسين علي الصغير .مؤسسة البلاغ.ط١ ٢٠١٢.

٧. الإمام الحسن العسكري ورواياته الفقهية دراسة في دلالات المتون لعبد السادة محمد حداد .العتبة الحسينية المقدسة . كربلاء ط١ ٢٠١٥ .
٨. إذا قام الإسلام في العراق للإمام محمد الحسيني الشيرازي.مؤسسة المجتبى للنشر .بيروت.ط١٠ .٢٠٠٢.
٩. الأنوار البهية لعباس القمي . مركز بقية الله.قم.١٣٨٣هـ.
١٠. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. للمجلسي .دار الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع.بيروت.٢٠٠٨.
١١. تاريخ الامم والملوك لابن الطقطقى .تحقيق عبد علي .بيروت.ط١ ١٩٩٨.
١٢. تاريخ الامم والملوك للطبري . مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الاجلاء. طبع القاهرة . ١٩٧٩.
١٣. تاريخ البلدان لأبي العباس اليعقوبي . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٤٢٢هـ.
١٤. تحف العقول عن آل الرسول "ص" للحراني . تقديم وتعليق حسين الأعلمي.قم.ط١ ١٩٩٦.
١٥. التفسير المنسوب إلى الامام أبي محمد الحسن بن علي العسكري "ع" . تحقيق مدرسة الامام المهدي .قم. مطبعة مهر. ط١ ١٤٠٩هـ.
١٦. تفسير القرآن العظيم لابن كثير . وضع حواشيه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية .
١٧. الحسن العسكري "ع" أبو القائم من بني هاشم . سيرة ، وتعليق ، وتحليل . بقلم كامل سليمان . دار التعارف لمطبوعات . بيروت – لبنان .ط١ ١٩٩٩ .
١٨. حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل لباقر شريف القرشي، انتشارات الاعتصام ط١ ٢٠٠٧.
١٩. حياة الامام العسكري "ع" دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الامام الحسن العسكري "ع" للشيخ محمد جواد الطبسي . مكتب الاعلام الاسلامي.قم.ط٢ ١٤١٦هـ.
٢٠. دور الامام الحسن العسكري "ع" في مواجهة البدع والانحراف العقائدي للاستاذ المساعد د. انوار سعيد جواد.جامعة كربلاء كلية العلوم الاسلامية. ضمن وقائع المؤتمر السنوي الرابع/ كلية العلوم الإسلامية. ضمن وقائع المؤتمر السنوي الرابع/الجزء الثالث.٢٠١٣.
٢١. الرجال لابن الغضائري . تحقيق محمد رضا الجلالي. دار الحديث.قم.١٤٢٢هـ.
٢٢. سفينة البحار للشيخ عباس القمي. منشورات مكتبة سنائي.
٢٣. سيرة الإمام الحسن العسكري "ع" دراسة تحليلية للسيرة الاخلاقية والعلمية والسياسية للإمام العسكري "ع" للشيخ الدكتور عبد الله أحمد اليوسف . دار المحجة البيضاء بيروت .ط١ ٢٠١٤ .

٢٤. صحيح البخاري للبخاري . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٨٩ .
٢٥. فتوح البلدان للبلاذري . وضع حواشيه عبد القادر محمد علي .دار الكتب العلمية. بيروت .١٩٧١ .
٢٦. الفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ. تحقيق سامي الغريري . النجف. ط١ ١٤٢٢هـ.
٢٧. الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية . ابن الطقطقا . تحقيق عبد القادر محمد مايو . دار القلم العربي . بيروت . ط١ ١٩٩٧ م.
٢٨. القاموس المحيط للفيروز آبادي . دار الفكر .بيروت.ط١ ١٩٧٨.
٢٩. كشف الغمة في معرفة الأئمة للاربلي . تقديم أحمد الحسيني.قم.ط١ ١٩٩٥.
٣٠. كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق . تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري . مؤسسة النشر الاسلامي . قم المقدسة.١٤٠٥هـ.
٣١. مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي .علق عليه كمال حسن مرعي.دار الفكر للنشر .بيروت.١٩٧٣.
٣٢. معجم رجال الحديث للسيد أبي القاسم الخوئي. مطبعة الآداب . النجف ط١ ١٩٧٢.
٣٣. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب . المكتبة الحيدرية . النجف الأشرف.١٩٥٦.
٣٤. المنهج الرسالي للامام الحسن العسكري "ع" للاستاذ المساعد حمدية صالح دلي . جامعة القادسية . كلية التربية . ضمن وقائع المؤتمر السنوي الرابع بتارخ ١٧ – ١٨ ايار ٢٠١٣ .
٣٥. نهج البلاغة . المختار من كلام أمير المؤمنين . لجامعه الشريف الرضي .تحقيق السيد هاشم الميلاني . العتبة العلوية المقدسة .٢٠١٠ .
٣٦. نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار لمؤمن بن حسن الشبلنجي .مصطفى البابي الحلبي واولاده . بيروت .١٩٤٨.
٣٧. وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي . تحقيق عبد الرحيم الشيرازي. دار احياء التراث العربي.بيروت.١٣٧٦هـ.
٣٨. ينابيع المودة للقندوزي الحنفي . تحقيق علي جمال الحسيني . دار الأسوة.قم.ط١ ١٤١٦هـ.